

(٢)

البروفسير الحافى

القصة التى يحكيها الكتاب الذى سأعرضه ، والتى سأحكيها هنا مختصرة ، قصة غريبة ، لا تصدق ، لكنها تستحق أن تُروى ، هى قصة تحكى كيف تتطور فكرة تافهة فى عقل جاهل يحتسى بإيديولوجيا الحزب الحاكم وجبروته ، ثم تجد الترحيب والحفاوة والتهليل فى الجرائد والمؤتمرات وأجهزة الإعلام ، فيزداد صاحبها غروراً ويتضخم حجمه ويتصور أنه عالم ، حتى يصدق نفسه ، فيقود بلاده إلى كارثة . وأنا لم أقرأ عنها بالعربية إلا فقرات جد قصيرة . حاولت كثيراً أن أعرف التفاصيل . ظهر عنها كتاب فى أوائل الستينات لم أعرف به إلا بعد أن نفذت طبعته . وفى صيف ١٩٩٩ عثرت على هذا الكتاب الذى أعرضه هنا : (لايسنكو وتراجيديا العلم السوفييتى) . أفزعنى كثيراً ما قرأته . القصة أفضع مما كنت أتخيل .

كان لايسنكو بلا شك فى رأى واحدًا من أهم أسباب انهيار الاتحاد السوفييتى ، فلقد دمر هذا الرجل ، وحده ، الزراعة السوفييتية . لكنى لم أكتشف حجم هذا التدمير إلا بعد قراءة كتاب سويفر ، الذى يعمل الآن أستاذًا ورئيسًا لمعمل الوراثة الجزيئية بجامعة أمريكية . كان سويفر طالبًا

في الخمسينات في موسكو، استمع إلى محاضرات لايسنكو ووقع تحت سحر حديثه وحماسه، لكنه جُرد في السبعينات من درجاته العلمية ومن وظيفته لأنه عَضُد الفيزيائي أندريه زخاروف، كما انضم إلى حركة المنشقين بالاتحاد السوفييتي. تمكن في ذلك العقد من جمع كل ما أمكنه عن لايسنكو، ليكتب بالروسية (أفضل رواية عن تاريخ لايسنكو وعصره). ثم سُمح له على نحو مفاجئ بمغادرة الاتحاد السوفييتي عام ١٩٨٨، ليُترجم الكتاب ويُنشر باللغة الإنجليزية في عام ١٩٩٤.

تسبب لايسنكو وبطائه في فساد أخلاقي وسياسي كبير. يحكى تاريخ هذا الرجل كيف أن الوهم إذا فُرض قسراً بالإلحاح عليه في أجهزة الإعلام، قد يتحول في عقول الناس ويصبح كياناً قائماً بذاته. تكشف القصة عن الدكتاتورية السياسية وكيف تؤثر على كل مناحي الحياة في الدول الشمولية. لم تكن اللايسنكوية مجرد نتاج للفساد ستالين، ولم تنشأ فقط عن عزل المجتمع بعيداً عن التحكم في أموره إبان (عبادة الفرد)، إنما كانت هي النتيجة المنطقية لتحكم الحزب في العلم، هي النتيجة الوحيدة لأنعدام التعددية، لقمع كل معارضة، للاهتقاد بضرورة تحكم البروليتاريا والفلاحين في توجيه العلماء والمثقفين، لتحكم السياسة في العلم. لم تكن نتيجة للنظرة غير العلمية لفرد حظي بتعميد قادة الإيديولوجيا الرسمية وآلية الدولة، وإنما كانت (ظاهرة اجتماعية) لا تظهر إلا مع العلم المُخَطَّط سياسياً. تنود الديكتاتورية إلى إضفاء القوة على الديماغوجيين والدجالين والانتهازيين الذين يُعهد إليهم

بتقليد أوامر الحزب، يتحمسون لها، ويقومون في ذات الوقت بإذكاء آمال جوفاء في القادة على القمة، ويقنع المعارضة العلمية، ليحولوا المؤسسات العلمية التي تمولها الدولة إلى منصات يرتفعون بها ويجمعون المال.

كان لايسنكو من أوائل البيولوجيين الذين اكتشفوا المطلوب منهم: مشاريع مؤقتة، تذاق في الوقت المناسب، تُعد بأنهار اللبن والعسل، فإذا ما تهاوى أى مشروع أنهى باللائمة على من قام بتنفيذه، أو على الأعداء الذين يفتنون ضد الماركسية. ولقد استخدم لايسنكو استراتيجية أنجح السياسيين، إذ يوجه نقده إلى الأعداء الإيديولوجيين، ثم يطلق فقاعة جديدة يوجه إليها الأنظار، فإذا ما انفجرت اتهم العلماء الحقيقيين بعد أن يشوه سمعتهم، حتى لو كانوا ممن يخدمون في بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي.

كان لايسنكو يشعر بخفة وزنه العلمي، وبأن زملاءه لا يأخذون أفكاره مأخذ الجد، فكان يصب جام حقه على منتقديه، ويمسئهم بالانحراف السياسى فيقبح عليهم ويسجنون وقد يُعدمون. لكنه أبدا لم يستطع أن يقضى تماما عليهم. كان بينهم من الشجعان من وقف في وجهه حتى أثناء حكم ستالين الرهيب. لقد وُضع الأساسُ الإيديولوجى للايسنكوية عندما ادعى صاحبها أن الطبقة المثقفة هي شريحة من المجتمع معادية للبروليتاريا. قال لايسنكو في واحد من كتبه: (إن قوتنا تنبع من حقيقة أننا تربينا في كنف حزبنا البلشفيكى وأرضنا الاشتراكية الحبيبة.

إن قوتنا تنبع من حقيقة أن الدارونية كانت تقود أعمالنا، وأن النظرية العظيمة لماركس - إنجلز - لينين - ستالين هي التي تهدينا سواء السبيل. لو حُرِّمنا من هذا كله لأصبحنا بلا حول ولا قوة. إذا سادت العلم الإيديولوجية السياسية والديماجوجيا، فلا يمكن للإبداع أن يحيها. إن الحكم الوحيد على قيمة العالم لا بد أن يكون منجزاته وقدراته العلمية لا معتقداته السياسية. لكن لايسنكو يقول «إن الحياة السوفييتية ذاتها تدفع الفرد ليصبح عالماً من نوع ما.. إن كل مشارك ذكى فى نظام الكولخوزات والسوفخوزات هو بشكل ما ممثل للعلوم الزراعية. فى هذا تكمن قوة العلم السوفييتى وقوة كل عالم سوفييتى». أى علم هذا وأى علماء!!

لايسنكو، البروفيسر الحافى

ولد تروفيم لايسنكو فى ٣٠ ديسمبر ١٨٩٨ لعائلة أوكرانية بقرية كاولوفكا. دخل مدرسة القرية ليتعلم القراءة وعمره ثلاثة عشر عاماً ليبقى بها سنتين. ثم درس لفترة تزيد قليلاً عن سنتين فى مدرسة أولية للفلاحة كان خريجوها يعملون عادة كبستانيين لدى كبار الملاك. فى خريف ١٩١٦ تقدم للالتحاق بمدرسة الزراعة والفلاحة فرسب، لينجح فى العام التالى. تدخلت الحرب العالمية الأولى فى مسار تعليمه، إذ أصبح التعليم غير منتظم، فأرسلته المدرسة إلى كييف لبضعة أشهر تلقى فيها فصولاً فى صناعة السكر، ثم عمل فى محطة حكومية صغيرة مهمتها انتخاب النبات وإنتاج سلالات جديدة من المحاصيل الزراعية وتوزيع

العقل وإرشاد الفلاحين. مكث بهذه المحطة شهرين ثم تحول إلى محطة في بيلايا لانتخاب بنجر السكر، حيث حصل على أول ألقابه (أخصائي انتخاب البنجر). في تلك السنين كان قادة البولشفيك يحاولون توسيع قاعدة الطلبة من بين صفوف البروليتاريا والفلاحين. اقتنص لايسنكو الفرصة والتحق عام ١٩٢٢ بمعهد كيبف للزراعة كطالب من الخارج - إذ كان يعمل لا يزال في بيلايا. وفي عام ١٩٢٥ حصل على شهادة مهندس زراعى. كان لا يعرف لغة أجنبية، وبذا فلم يكن - طول عمره - على صلة بالعلم خارج الاتحاد السوفييتي.

عين مهندساً زراعياً في محطة تجارب مركزية لتربية النبات في أذربيجان، وكانت مهمته هي (انتخاب البقوليات ونباتات العلف ونباتات التسميد الأخضر). كانت المحطة تتبع (معهد علم النبات التطبيقي والمحاصيل الجديدة) الذى يرأسه نيكولاس فافيلوف، وعُهد إليه بفحص إمكانية زراعة المحاصيل البقولية، إذ لم تكن هذه المحاصيل شائعة في أذربيجان. كانت مهمة بسيطة يمكن أن يُعهد بها إلى أى مساعد معمل. قام لايسنكو فى العام الأول بزراعة البسلة، كان ذلك فى شتاء ٢٥ - ١٩٢٦، وكان شتاء معتدلاً، فنجحت الزراعة. كانت البداية مشجعة لكنها تحتاج إلى تطوير لتصبح النتائج حاسمة.

ثم حدثت بالصدفة واقعة هامة. كان الصحفى البارز فيودوروفيتش - من جريدة يرافدا - يبحث عن بطل ذى خلفية فلاحية، فكتب مقالاً

يتحدث فيه عن (حقول الشتاء) وعن لايسنكو الذى (لم يحظ بتعليم كثير، لم يدخل جامعة، لم يدرس الشعر على أرجل الذباب، وإنما اتجه إلى الصميم). مكث هذا الصحفى يومين مع لايسنكو بين الحقول فلاحظ أنه متقشف جاد هادى،، لم يره مبتسماً إلا مرة واحدة. (كان للمكثين مظهر مكتئب.. عيناه حزینتان، ينظر إلى الأرض وعلى وجهه تعبيرات شخص يفكر فى ارتكاب جريمة قتل.. ولقد أصبح لهذا البروفسور الحافى أتباع، وطلبة، وحقول تجارب). أشعل هذا المقال رغبة لايسنكو فى النجاح السهل.

الإزنياع .. أكان كَشْهًا ؟

بعد أن ظهرت مقالة برافدا ، تحول لايسنكو، ومعه دولجوشين، وفريق من المساعدين، إلى موضوع آخر: دراسة أثر انخفاض درجة الحرارة على النباتات. عمل الفريق من خريف ١٩٢٦ حتى ربيع ١٩٢٧. غيرت هذه الدراسة مجرى حياته. جمع مساعده سجلات عن ميعاد الزراعة والإنبات والإزهار والنضج فى القمح والشعير والجويدار والشوفان والقطن، كما جمعوا المعلومات عن درجات حرارة الجو - وهذه كلها معلومات بسيطة تُجمَع روتينياً بمحطات التجارب. نُظمت هذه البيانات فى جداول طويلة كتب لها لايسنكو حواشى هزيلة ونشرت عام ١٩٢٨ فى مجلة محلية، وعليها اسمه. بلغ حجم هذه الدراسة ١٦٩ صفحة (تشغل جداول البيانات منها ١١٠ صفحات)، وكلها ملاحظات مما نجده عادة فى دفاتر المحطات لا فى الأوراق العلمية.

كان تعريض نباتات الحبوب الشتوية إلى فترة من البرد كى تطرد
السنابل مبكرًا، أمرًا معروفًا من زمان، أطلق عليه علماء فسيولوجيا
النبات اسم (الإرباع). لكن يبدو أن لايسنكو لم يكن يعرف هذا، فقد كان
يعتمد على الجرائد اليومية لا على المجلات العلمية.

فى مؤتمر عقد فى كيبف فى ديسمبر ١٩٢٨ عرض لايسنكو ورقة له
مع دولجوشين أعلن فيها صراحة أن وراء بحثه هذا فكرة ثورية قد تُفسّر
مجرى الزراعة تمامًا: بذّر حبوب الشتاء فى الربيع لتنمو تمامًا كما تنمو
محاصيل الربيع.

تزرع بذور قمح الشتاء عادة فى الخريف، لتنبّت قبل حلول الشتاء
البارد، ثم تستأنف النباتات نموها بعد نهاية الشتاء لتُحصد فى الصيف
القابل. فإذا كان الشتاء قاسيًا كثير الضيق فقد (يُخنق) الثلجُ النباتَ
تحتة، وإذا كان الربيع كثير المطر فقد يتعفن المحصول قبل ضعه. وقد
ادعى لايسنكو فى ورقته أنه إذا ما عُرّضت للبرودة بادراتُ القمح الشتوى
ولم تزرع حتى الربيع فإنها تتجنب مخاطر الزراعة فى الخريف ويزيد
محصولها عند زراعتها فى الربيع - فمحصول القمح الشتوى أفضل من
محصول الربيعى.

وفى صيف وخريف ١٩٢٩ بدأت الجرائد تنشر أخبارًا تقول إن والد
لايسنكو - عضو كولخوز قرية كارلوفكا - قد أجرى (تجربة) على قمح
شتوى تم إرباعه. كتبت جريدة يرافدا فى يوليو ١٩٢٩ تقول (بذّر

لايسنكو الأب.. القمح الذى تم إرباعه، فى حقله ربيع ١٩٢٩ متبعًا تعاليم ولده. ومنذ أسبوع قامت اللجنة الزراعية لأوكرانيا بزيارة الحقل. المتوقع أن يتم الحصاد فى ٢٠ أو ٢٥ يوليو. وتقدر اللجنة أن المحصول سيصل إلى ثلاثة أطنان، مقارنة بمتوسط يبلغ طنًا واحدًا لكل القمح الربيعي بالمنطقة!

والحق أن بيانات لايسنكو كانت دائمًا غير جديرة بالثقة، فتجاربه فى واقع الأمر لم تكن تجارب على الإطلاق. لم تُزرع حقول بالقمح العادى حتى يمكن إجراء المقارنة. لم تُكرّر للتأكد من النتائج. لم تُنشر مقصلة فى مجلة علمية - كانت نتائجه جميعًا تظهر فى الجرائد أو فى مجلته الخاصة (الإرباع).

تحمست جريدة برافدا له حماسًا منقطع النظير. كتبت تقول (إن التوقعات من هذا البحث الرائع للزراعى لايسنكو أبعد من الخيال، بعد أن عضدتها البيانات التجريبية الهائلة). (إن كشفه سيقود زراعتنا إلى طريق عريض ذى إمكانيات رائعة.. وسيزيد كثيرًا من سرعة بناء الاشتراكية).

كان الجميع يبحثون عن خرافة، عن وهم، عن أسطورة تحل مشاكلهم بضرية واحدة، بدلاً من مواجهة العمل الجاد. وصناعة الأساطير سمة من سمات المجتمع الشمولى. تسلت الخرافة إلى صميم حياة السوفييت.. وكانت فكرة أن يتمكن بسطاء العمال من تحقيق المعجزات تتوافق تمامًا مع المناخ العام للنظام الشيوعى.

وعُيِّن لايسنكو - الأخصائى الصغير فى محطة تجارب أنذربيجان الصغيرة - رئيساً لمعمل فى (الأكاديمية الأوكرانية للعلوم الزراعية).

منهج علمى جديد، العناية

فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٩ نشرت (المجلة الزراعية) - التى يصدرها الحزب الشيوعى - صفحة كاملة تناقش قضية إرباع سلالات القمح الشتوى ودَعَت أربعة من العلماء البارزين، فتحدّثوا جميعاً باحترام عن عمل لايسنكو إنما فى غير حماس، فقد رأوا أن الفكزة لا تزال غير ناضجة للتطبيق الواسع فى الحقل. وبعد بضعة أيام نشرت نفس المجلة تعليقاً طويلاً عن نفس الموضوع دون أن تشير إلى ما سبق لها أن نشرته، فقالت إن أهمية أعمال الزراعى لايسنكو إنما تأتى عن حقيقة أن إرباع القمح الشتوى يَبعد بزيادة المحصول فى مناطق كثيرة، (فتجارب الرفيق لايسنكو تقود مباشرة إلى حل واحدة من أخطر مشاكلنا اليوم - مشكلة الحبوب). تحول الكشف العلمى من العامل إلى صفحات الجرائد. وبدأت السلطة الحكومية تستخدم الصحافة فى الضغط على العلماء.

علم الكولخوزات باستثمارات الاستبيان

بمجرد أن تقلد لايسنكو رئاسة معمله الجديد أرسل نشرة إلى كل الكولخوزات والسوفخوزات يطلب فيها إرباع القمح الشتوى، وإرسال النتائج إلى المعهد. ولتسهيل العملية أرفق ثلاث استمارات استبيان تُرصد فيها النتائج.

لا خطأ في فكرة استثمارات الاستبيان في حد ذاتها، لكن المنهج العلمي يتطلب بيانات مختلفة تمامًا. لم يكن لايسنكو في واقع الأمر يعرف شيئًا عن قواعد البحث العلمي. لم يكن يعرف أن هذه الوسيلة لا تغني عن تجارب مكررة، تُجرى تحت ظروف متماثلة، في تربة متماثلة، ومعاملات للتربة متماثلة، وظروف حيوية متماثلة.. الخ.

ولقد تزامن توزيع هذه الاستثمارات مع الفوضى التي عمت في مرحلة تحويل الأراضي الزراعية إلى ملكية شائعة. وعلى ربيع ١٩٣٠ كان لايسنكو يدعى أن «المئات من (باحثي) الكولخوزات والسوفخوزات يستخدمون الإرباع بالفعل». وبدأت الجرائد تنشر عناوين مثل (سنلقن معارضي الإرباع دريًا)، وأبدأ لم تنشر شيئًا عن النواحي السلبية للإرباع. ولنا أن نتوقع ما يكون لهذا المناخ من أثر عند تحرير استثمارات الاستبيان: مُلئت الاستثمارات بأرقام مبالغ فيها - فقد عرف الجميع أي أذى يمكن أن يحيق بهم إذا كانت نتائجهم متواضعة. فهم الجميع كيف تُلفق النتائج حتى تُرضى. فلما قررت الحكومة تخصيص حصص للإرباع لكل مقاطعة، أصبح من الخطر أن تُملأ الاستثمارات حتى بأرقام لا تُقدم إلا تحسُّنًا طفيفًا. وأخذت الخدعة تتضخم.

الهزيمة الأولى للوراشيين

وقبل أن تظهر أية نتائج للإرباع، دُعي لايسنكو في أوائل عام ١٩٣٠ لإلقاء بحث أمام أعلى هيئة استشارية للزراعة السوفييتية. وقرارات هذه الهيئة في القضايا الزراعية أوامر. قوبل البحث بمقابلة حسنة، ووافقت الهيئة على الإرباع. وفي فبراير ١٩٣١ ألقى ورقة في اجتماع اللجنة التنفيذية للأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، فتمتت قراراً بأن الإرباع (قد أثبت نفسه)، ثم منحت المبتكر جائزة مالية كبيرة.

وبعد بضعة أشهر أصدر مجلس المفوضية الزراعية توجيهها بزراعة قمح الإرباع في عشرة آلاف هكتار بجمهورية روسيا، ومائة ألف هكتار بأوكرانيا، وبتعزيز معمل لايسنكو بمنحة سنوية قدرها ١٥٠ ألف روبل لإجراء البحوث وإصدار مجلة عن (الإرباع).

وفي سبتمبر ١٩٣١ أظهر لايسنكو براعته في خطف الأضواء. كان ذلك في مؤتمر عقد تحت عنوان (مشكلة الكفاح من أجل محصول كبير ثابت). قال إن تغيير عامل واحد، هو درجة الحرارة - قد مكنه من زيادة فورية قدرها ٤٠٪ في محصول قمح أدريبجان الذي زرعه في أوديسا. لم يذكر رقماً آخر. رقم واحد مذهل كهذا يكفي. ثم تحول المؤتمر إلى مناقشة تخفيض الزمن اللازم لاستنباط السلالات الجديدة، ذلك أن قراراً علوياً كان قد صدر في ٢ أغسطس ١٩٣١ عن بعض لجان الحزب (يأسر) بالإسراع من الانتخاب لإنتاج سلالات جديدة عالية المحصول تتلاءم مع الميكنة الزراعية، تقاوم البرد والجفاف، والآفات

والأمراض وتحويل الصفات اللازمة للنشر إلى الشمال وإلى الشرق، وبحيث يُختصر زمن استنباطها إلى ثلث أو ربع الزمن المعروف. قال الحاضرون من كبار العلماء إن هذا أمر مستحيل، إن إنتاج السلالة يتطلب ما لا يقل عن عشر سنوات، وهنا صاح رئيس المؤتمر (لا يمكننا أن ننتظر عشر سنوات.. إن الحزب والحكومة يطلبان من العلماء مجهودات فورية حاسمة بل وبطولية للتوصل إلى نتائج عملية).

وفي أواخر أكتوبر بدأ مؤتمر عن معالجة الجفاف افتتحه مولوتوف بنفسه، وفيه أعلن لايسنكو أن الإرباع سيجعل من التغلب على الجفاف أمراً ممكناً، وأضاف أنه عمل على (١٢٦٠ خطأً نقياً معظمها من القمح الصلب أخذت من مناطق مختلفة من أذربيجان.. لم يُحسب وزن المحصول بعد، أما بالنسبة لوزن الحبة فقد تم وزن ألف منها، وكانت تفضل كثيراً حبوب القمح الأوكراني).

أمن الممكن أن يقرر عالم أفضلية سلالة على أخرى بوزن ألف حبة جمعت من مصادر لم تحدد؟ لكن القيادة قدمت له الدعم الكامل. صدرت جريدة إزفستيا تقول إن (الرفيق لايسنكو نفسه لا يدرك الأهمية الفائقة لعمله.. إنه عملنا نحن.. أن نطبق طريقة لايسنكو على نطاق واسع.. عندئذ سنضع الأمور على أساس علمي ثوري حقاً). واتخذ المؤتمر قراراً (بأهمية العمل على التوصل إلى طريقة لمعالجة بذور أنواع أخرى من النباتات - بجانب الحبوب - قبل الزراعة). لم يكن ثمة شخص واحد قد أكل رغيفاً من قمح الإرباع. لكن لايسنكو تلقى في ديسمبر ١٩٣١ أول وسام حكومي رسمي: (لأعماله في الإرباع).

وعلى عام ١٩٣٢ كان لايسنكو مصرًا على أن يمتد الإرياع إلى محاصيل أخرى لم تُجر عليها أية بحوث: الطماطم، والذرة، والدُّخْن، والسورجم، وحشيشة السودان، وفول الصويا، ثم أضيف القطن عام ١٩٣٣، وأشجار الفاكهة عام ١٩٣٤. ومنذ ذلك الحين أصبح تكتيك لايسنكو هو التلاعب بالمشاريع وتوسيع المجالات دون أدنى أساس يرتكز عليه من النتائج التجريبية.

خُداع في خُداع

لكى يطبع لايسنكو ومساعدوه (منجزاتهم) فى أذهان قادة الحزب، كانوا يضيفون العام وراء العام ما يصلهم من بيانات عن محصول مرتفع من الكولخوزات وينسبونه إلى الإرياع، ثم يضربون المتوسط \times المساحة المنزرعة بالدولة كلها ليتوصلوا إلى تقديرات هائلة لحجم المحصول. وكانت هذا التقديرات المضخمة تجد هوى فى نفس المسئولين وهم يواجهون كارثة زراعية. فلقد واجه الاتحاد السوفييتى فيما بين عامى ١٩٢٨ و ١٩٣٢ جفافاً مدمراً، بجانب آثار ثلاثة من برامج ستالين: تحويل المزارع إلى ملكية شائعة، اعتقال نحو عشرة ملايين من الكولاك وعائلاتهم ونفيهم (عادة إلى سيبيريا) - وكانوا أنجح المزارعين، ثم قيام الجيش مع فرق خاصة من عمال المصانع بمصادرة كل الحبوب.

اعترف ستالين نفسه فى المؤتمر السابع عشر للحزب عام ١٩٣٤ أن أكبر تدهور حدث فى المحاصيل كان فى عامى ١٩٣١ و ١٩٣٢ عند

إعادة تنظيم الزراعة. وقال مولوتوف فى نفس هذا المؤتمر إن متوسط إنتاج الحبوب فى السنين من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ قد بلغ ١,٧٥ طنًا للهكتار، أقل بكثير من أهداف الخطة، كما فقدت الدولة أكثر من ٤٠٪ من ماشيتها وخيلها وما يصل إلى ٦٥٪ من أغنامها وماعزها، ونحو ٥٥٪ من خنازيرها. حدث كل هذا ولم يعترف ستالين أو أى من زملائه بأن تحويل المزارع إلى الملكية الشائعة كان بمثابة كارثة، وأن الأمر يستلزم وضع برنامج علمى سليم لتحسين أوضاع الزراعة.

كان الكثير من سلالات القمح الروسية العريقة جيد النوعية، لكن محصولها لم يكن وفيراً. لو طبق برنامج علمى صحيح مبنى على التقدمات الحديثة فى علوم الوراثة لأمكن بالتأكيد رفع كفاءة هذه السلالات، لقد استعمل منها الكثير كأسلاف للسلالات الأمريكية والكنذية الجديدة.

وفى نهاية عام ١٩٣٢ أعلن لايسنكو أنه يقوم بتطوير سلالة قمح جديدة فى حدود الإطار الزمنى الذى تقرر فى أغسطس ١٩٣١. كان آنذاك عضواً بمعهد أوديسا للوراثة وتربية النبات. رفض سابجين مدير المعهد هذا ورأى ضرورة أن تقوم تربية النبات على الأسس الراسخة لعلم الوراثة، وطلب أن يدرس كل أعضاء المعهد نظرية الوراثة. لم يعجب هذا لايسنكو وتابعوه من معتقى الإرباع. وبدأ النزاع.

كان سابجين قد لاحظ أثناء مروره بحقول التجارب بعد حصاد القمح أن ثمة محاولات تجرى لتلقيح النباتات، فأصر على أن يصحبه لايسنكو

إلى هناك لتفحص الأمر. ولم يمر زمن طويل قبل أن يُقبض. على سابجين لأنه شخص (هدام) ويُسجن عامين. قامت معركة ضارية كما قيل - تغلب فيها فريق لايسنكوو.. «ذلك الفريق الذي تحركه فكرة واحدة وإيمان راسخ بالنصر.. تغلب على كل العقبات.. ومضى واثقاً إلى هدفه المحدد الواضح: سلاطة ينتهي تخليقها في سنتين ونصف» (١).

وعلى نهاية عام ١٩٣٤ كانت المهلة التي حددها بنفسه لإنتاج السلاطة قد أوشكت على الانتهاء، وكان الفشل بادياً أمامه. لكنه لم يهتم، وإنما أرسل في يوليو ١٩٣٥ برقية إلى الحزب والحكومة تقول (بدعمكم تمكننا باستخدام التهجين من تحقيق ما قطعناه على أنفسنا من أن نطور في ظرف سنتين ونصف صنفاً ربيعياً من القمح لمنطقة أوديسا، مبدراً النضج عالي المحصول. ولقد توصلنا إلى أربعة أصناف).

تَعَلَّم أن يُدَلِّس، أن يدعم آراءه ببيانات مزورة، أن يتجاهل كل النتائج التي لا تتفق مع توقعاته، وابتكر أسلوبه الخاص الذي يركز فيه على العبارات الرنانة، وأدرك ضرورة أن يقلون مع التغييرات السياسية.

ثم تحول بعد القمح إلى البطاطس ليعالج مشكلة رفع إنتاجها المنخفض في الجنوب، فقرر دون أن يجري تجربة واحدة أن بقاء الدرنات في التربة الدافئة لمدة شهرين يؤدي إلى تدهور الصنف، أما إذا زرعت في تربة باردة (قرب الخريف مثلاً) تحسن (الصنف) في ظرف موسم أو اثنين. الطريق واضح إذن نحو تحسين البطاطس. ثم بدأ في تشغيل طريقته المعهودة: وابل من المقالات في الصحف تزكى زراعة البطاطس

الصيفية: إحدى عشرة مقالة في الفترة من مارس حتى نوفمبر ١٩٣٥. وكان من المحتم أن يتحدث عن التضمينات السياسية لابتكاراته فتساءل: (لماذا لم يستخدم الرأسماليون المستغلون بالغرب الحقير مبتكراته؟ لأن إقرارهم بتغيير طبيعة البطاطس في الجنوب إنما يعنى تسليمهم بأن وراثته الكائنات الحية تتغير مع تغير ظروف الحياة، وهذا التسليم يصيب العلم البورجوازي للوراثة في مقتل).

تُجاهد الدكتاتوريات كي تغرس الطاعة في النفوس، إلى أن يخضع الناس للأوامر دون سؤال، بل وفي حمية. فالشعارات التي تتكرر آلاف المرات تصبح جزءًا لا يتجزأ من تفكير الفرد ووجوده، حتى أن تنمحي إرادته وطموحاته الشخصية ولا يتبقى إلا الرغبة المتقدة في تنفيذ التوجيهات. تُلقي عملية إخضاع إرادة الناس وفكرهم لمطالب الدكتاتور معارضة قوية من أهم مَنْ يحتاجهم: المبدعين، المبتكرين من أهل الفكر، لاسيما العلماء. فمهنة العلم تتطلب النقد، والنقد في المناخ الشمولي يعرض أسس البنية الشيوعية للخطر. وعلى هذا فقد أوضح قادة الاتحاد السوفيتي بجلاء أنهم يُقدِّرون من العلماء مَنْ يمكن التعامل معه بنفس سهولة التعامل مع العمال والفلاحين، مَنْ يقبلون في حماس أن يتسلقوا ذرى العلوم عند صدور الأوامر. يقول لايسنكو: (يسهل في وطننا هذا أن تصبح عالمًا إذا توفرت لديك الرغبة والاستعداد. إن الحياة السوفييتية ذاتها تدفع الفرد ليصبح عالمًا من نوع ما.. إن كل مشارك ذكي في نظام الكولخوزات والسوفخوزات هو بشكل ما ممثل للعلوم الزراعية. في هذا

تكمُن قوة العلم السوفييتي.. وهذا هو السبب في أن يكون الطريق الذي قادني إلى العلم طريقاً عادياً مفتوحاً أمام كل مواطن سوفييتي). على يدي لايسنكو تحول معنى العلم ليصبح هزلاً، ليصبح أداة للدعاية السياسية.

برائوايها الرفيق، برائوا!

كان عام ١٩٣٥ عام النصر بالنسبة للإيسنكو، ففيه أثنى عليه ستالين وحيّاه. فلقد عُقد في فبراير من هذا العام بالكرملين مؤتمر عُمال الحصاد وحضره كبار العلماء وقادة الحزب والحكومة، وستالين. وقام لايسنكو في الجُمع خطيباً مفوهًا يسحر سامعيه ويأخذ بالبابهم فينسون كل شيء ويرون فيما يقوله شيئاً من وحى ملهم. بدأ لايسنكو خطابه بتذكير الحاضرين بعشرات الآلاف من الكولخوزات التي تعمل (بالعلم التطبيقي) للإرباع. (لكن يا رفاق، هل أنجزنا كل ما يمكن أن ننفجزه؟). أجاب على تساؤله (كلا. ليس كل شيء.. فعلى الرغم من أن الكولخوزات التي طبقت الإرباع قد أضافت إلى إنتاج الحبوب ٠,٣ - ٠,٥ مليون طن هذا العام.. فإن هذا القدر تافه، إن مهمتنا هي أن نرفع إنتاجية كل حقول الكولخوزات والسوفخوزات). ثم تحول يتهم ناقيده بالتخريب (ولكن يا رفاق، أليس هناك، ألم يكن هناك صراع على جبهة الإرباع؟) إن الكولاك يخربون (ففي داخل العالم العلمي وخارجه يظل العدو الطبقي عدواً، حتى لو كان عالماً.. لقد أدى نظام الكولخوزات عمله، ولا يزال يؤديه، مرتكزاً على المنهج العلمي الأوحده، المبدأ المرشد الوحيد الذي يعلمنا إياه الرفيق ستالين).

لس الوتر الحساس. قفز ستالين واقفاً في حماس وصاح: (برافو أيها الرقيق لايسنكو، برافو). وانفجر المؤتمر في تصفيق محموم. كان لتصفيق ستالين أهميته القصوى، فقد كان يعنى أكثر من كل آراء الأكاديميين مجتمعين. رُفِع لايسنكو إلى مرتبة فوق كل العلماء.

نشرت برافدا خطاب لايسنكو بأكمله ومعه صورته وصيحة ستالين (الخالدة).

ما هي الميتشورينية ؟

في عام ١٩٢٩ اقترح إيزاك بريزنت، الأستاذ المتخصص في المادية الجدلية، على لايسنكو أن يربط الإرباع بالدارونية. والظاهر أن لايسنكو لم يكن قد سمع عن داروين، فسأله عمّن يكون هذا الرجل وصفاً إذا كان من الممكن أن يقابله كما اقترح عليه أيضاً أن يطلق على بيولوجيته الجديدة اسم (البيولوجيا الميتشورينية)، فاسم (البيولوجيا اللايسنكوية) قد يكون خطراً عليه.

أشتهر البستاني إيفان ميتشورين (١٨٥٥ - ١٩٣٥) بتطويره العديد من سلالات الفاكهة والتوتيات، كما طور سلسلة من طرق تقنية لتجهين السلالات، من بينها التطعيم. عندما كان يافعاً في المدرسة الثانوية طُرد لأنه (وقح)، فعلم نفسه بنفسه، وطور بنفسه نظرية مشوشة بدائية لقوانين البيولوجيا. لم يدع هذا الرجل يوماً أنه رجس وراثة، لكنه كان يعشق الجدول والتأمل. كان مجرد هاو بسيط سانج، عقد صداقة مع فافيلوف،

وعن طريقه وصل إلى عليبة القادة. ولقد حاول لايسنكو مرة عقد صداقة معه، فتوجه إلى منزله، لكن ميتشورين أغلق الباب في وجهه. فلما مات عام ١٩٣٥ اختار لايسنكو مع بريزنت مقتطفات من كتاباته المتناقضة وصوّرا الرجل على أنه العدو العنيد لمندك وغيره من الوراثةيين، وقررا أن يتخذ اسم (البيولوجيا الميتشورينية) اسماً جامعاً لكل نظريات ميتشورين ومشاريعه.

زواج الحب

في عام ١٩٣٤ نبعت في ذهن لايسنكو فكرة غريبة، هي (زواج الحب)، تقول إن كل سلالات النباتات تتدهور من عام إلى عام، لكننا نستطيع أن نوقف التدهور إذا هجأها سوياً، داخلياً وخارجياً، وستكون النتيجة أن نرفع الإنتاج، ليس فقط من محصول واحد وإنما من كل محاصيل الدولة! كانت هذه الفكرة تعارض كل أسس علم الوراثة وتربية النبات كما تعارض خبرة المربين. يعرف المربون ضرورة أن تُزرع السلالات بعيدة عن بعضها بعضاً خشية أن تتهاجن سوياً، لكن، ها لايسنكو يقول لهم الآن إن مثل هذا المجهود لا طائل وراه، بل إنه ضار، وأن طريقتهم في التربية خاطئة، وكانت خاطئة، وأن عليهم أن يقوموا بتسهيل السلالات. لم يقدم الرجل أية شواهد تعضد نظريته الجديدة، وإنما قدمها على أنها الحقيقة التي لا تحتاج إلى إثبات. بل لقد أكد أن أية اعتراضات تأتي من قوانين الوراثة لا بد أن تكون خاطئة. ابتداءً بإنكار قوانين الوراثة واحداً واحداً، أما الآن فهو يرفض العلم من أساسه.

وطريقة تطبيق الفكرة عملياً هي أن يضع المرءى على ميسم الزهرة حبوب لقاح أزهار أخرى (وهنا تنتهى مهمتنا. لقد أعطينا الزهرة حرية اختيار ما تريد). هذا هو (زواج الحب)، أما التلقيح الذاتى فهو (زواج القهر)، فهو ليس زواجاً عن حب. فمهما كانت رغبة بويضة الزهرة فى (الزواج) من (الرفيق) الذى ينمو بجوارها فإنها لن تستطيع لأنها مغلقة دونه ولن تسمح بمرور أية حبة لقاح. ولأول مرة عارضه فافيلوف، فانتقد الفكرة، ولكن بدماثة. وفجأة تغير موقف ستالين تجاه فافيلوف، فاستدعاه، وبعد لقاء قصير افترقا (كل فى طريق). وبعد فترة وجيزة عُزل فافيلوف من رئاسته لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، وفقد عضويته فى اللجنة التنفيذية المركزية العليا.

وفى أكتوبر ١٩٣٥ بدأت الجرائد تشير إلى تحسن الوضع الغذائى فى الدولة، وقارنت هذا النجاح (للزراعة الاشتراكية) بالعجز الغذائى فى ألمانيا الفاشية. ونشرت برافدا على صفحتها الأولى صورة للايسنكو ومعه عامل زراعى يتفحصان قمح لايسنكو الربيعى. وأخذ لايسنكو يردد الحديث عن (علم حقول الكولخوزات والسوفخوزات) كقوة توازى «علم البيولوجيا البرجوازى، العاجز - بطبيعة الزراعة الرأسمالية - عن اختبار حقيقة استنباطاته.. إن مهمتنا يا رفاق هي التمكن من التراث العلمى لميتشورين، أحد كبار علماء الوراثة.. لكننا (يا للأسف) لا نهتم إلا بعدد الكتب الأجنبية التى قرأها الفرد».. «يمكنك أن تسافر إلى أوديسا

وتقنع نفسك بأننا قد أنتجنا بالتهجين سلالة من القمح فى سنتين وخسة أشهر. أين ستجد فى العالم حقائق كهذه؟ » .

وفى اجتماع عقد فى نهاية ١٩٣٥ لعمال الزراعة الممتازين وبعض كبار العلماء بجانب كبار رجال الدولة، كان من بينهم ستالين، قوبل لايسنكو بتصفيق حاد ووقف المجتمعون يحيونه، حتى ستالين نفسه وقف يصفق. قال لايسنكو فى خطابه إن علمه يختلف عن كل ما سبقه من علوم، وأكد أن معظم علماء الزراعة يعملون (بلا هدف) لسنين طويلة، ليكتشفوا فى النهاية (أنهم كانوا يأكلون قوت الشعب هذرا)، ثم أنهى خطابه بقوله (عاش الزعيم الكبير قدوة البروليتاريا فى العالم، وصانع انتصارات الكولخوزات والسوفخوزات، عاش الرفيق ستالين).

فى اليوم التالى أعلنت برفادا أن لايسنكو قد منح وسام ستالين.

مواجهة مع علماء الوراثة

كان أول اقتراح للايسنكو هو إرباع قمح الشتاء، فلما أدرك أنه قد أدى إلى انخفاض المحصول، بدأ بعد عام واحد لا أكثر بروج لإرباع قمح الربيع دون أن يشير إلى فشل فكرته الأصلية. لكن بحلول عام ١٩٣٥ كان ثمة تجارب محكمة قد أجريت على أيدي علماء كبار، ووجدوا (أن الإرباع لم يرفع الإنتاج). لم يهدر الإرباع نفسه، إنما تسبب فى خسائر فادحة. بدأ العلماء يعترضون على إجراء الإرباع بالقوة، وقالوا إن لايسنكو يستبعد عادة النتائج السلبية، وهاجموا إدعاءات لايسنكو

بأنه قد تمكن من إنتاج أربع سلالات من قمح الربيع فى ظرف سنتين
وبضعة أشهر. وهنا تحول لايسنكو ليقول إنه سيطور سلالة قمح جديدة
فى عام واحد!

كان مقتنعاً بأن (ديدان الكتب) لا يستطيعون النيل منه. لقد تفكّن
من سيكولوجيا القادة وأدرك أن ترويجه العملة الزائفة أمر مرغوب.

فى عام ١٩٣٧ استُدعى رئيس أكاديمية العلوم وبعض العلماء إلى
الكرملين لمقابلة ستالين ليفسدوا السبب فى أزمة الخضراوات فى موسكو،
كما استُدعى لايسنكو أيضاً. وفى أثناء الاجتماع توجه ستالين إلى لايسنكو
يسأله. فأخرج من جيبه بضع درنات صغيرة من البطاطس ووضعها على
المائدة أمام ستالين، وقال إنه قد ذهب ليفحص حقول معهد زراعة
البطاطس واستخرج بيديه درنات أول نبات قابله فى الحقل، فكانت
هذه. ثم وضع يده فى جيبه الآخر وأخرج ثلاث درنات كبيرة، ووضعها
أيضاً على المائدة، وقال إن هذه هى نوع البطاطس التى تنمو تحت كل
نبات فى حقول أوديسا. وكان أثر هذه الخدعة التى لا علاقة لها بالعلم
يلفوق كل تصور. بدأ ستالين على الفور يؤنب العلماء وبأمرهم بأن
يصححوا على الفور طريقتهم وأن يتبعوا أسلوب لايسنكو.

صعد لايسنكو سُلّم الإدارة فازداد تبجحاً وأصبح غير مهذب سريع
الغضب. أدرك أنه قد تمكن من تعضيد السلطات. صدق أنه معصوم من
الخطأ، ولم يعد يرى سبباً أن يصر العلماء على تكرير أعماله. اتخذ وضع
المعلم. ولما كان عاجزاً عن مواجهة علماء الوراثة ومقارعتهم الحجة

بالحجة، فلم يكن أمامه إلا أن يعلن: أن علم الوراثة كله زائف، وأنه يعرقل التقدم فى المرحلة الحالية، مرحلة إنشاء علم الكولخوزات والسوفخوزات.

فلقد تحول اجتماع الأكاديمية إلى ساحة معركة حقيقية. قال معارضو لايسنكو إنه يزعم أن الإرباع سيرفع المحصول مئات الملايين من الكيلوجرامات، ولكن ماذا عن الخسائر الحقيقية التى سببها الإرباع؟ قال إنه يهزأ بكل البحوث المعاصرة على الكروموزومات، وإن اعتراضاته على علم الوراثة لا تهتم، إنما المهم هو موقفه الضحل الذى يذيعه دون توقف عن العلم. قالوا إنه لا يفهم أساسيات العلم أصلاً. ثم وقف أعوان لايسنكو يدافعون. أكدوا أن علم الوراثة علم ضار، بل إنه ليس علماً على الإطلاق، وإنما هو تشويه بورجوازي للفكر العلمى، وطالبوا بأن يلزم الوراثيون حدودهم، بل وأن يُحظَر هذا العلم تماماً لأنه علم تخريبى، وأن على الوراثيين أن ينسوا مندل وأتباعه، ومورجان.. وباقى المعارف الوراثةية - فليس ثمة جينات. ثم أعلن لايسنكو نفسه عن عزمه على القيام عاجلاً بتحويل كل الحبوب الشتوية إلى حبوب ربيعية، ليس بالإرباع، (وإنما بتغييرها تغييراً وراثياً جذرياً.. إن أية سلالة شتوية يمكن أن تُحوَّل إلى سلالة ربيعية). وهنا صاح فافيلوف (هل تستطيع أن تعدل الصفات الوراثةية؟)، فأجاب بكل ثقة (نعم، الصفات الوراثةية).

قامت الجرائد بعرض آراء نقاد لايسنكو بصورة يستحيل فهمها، أما هجوم لايسنكو على علم الوراثة والوراثيين فقد نشرته بالكامل جريدة

إزفستيا وجريدتان من جرائد الحزب الزراعية. امتلأت مجلته (الإرباع) بخطابات من الفلاحين يشيدون به لأنه (يطل الشعب)، وخصص عمودٌ تنشر فيه صور (العلماء الفلاحين) في (معامل الكوخ). واعتُبر لايسنكو (الفلاح الأكاديمي)!

مضى إذن إلى كسب رضاء الساسة والصحافة ورجل الشارع، وإلى تشويه سمعة كبار العلماء واحتضان معاونين يفتقرون إلى المعرفة والإبداع والموهبة. كانت مؤهلاته هي مؤهلات سيده ستالين: الذكاء المتوسط، سوء التعليم، قلة الأدب، الاستخفاف بالأخلاقيات. اتخذ في البداية دور الحكيم المبقرى حتى جمع السلطة في يديه، وأخذ يجدُ بوعود هائلة، ومثل دور لفلح الذي علم نفسه بنفسه، واستدرج العديد من كبار العلماء لتزسيخ سلطته، حتى أخرج الجدل من الساحة العلمية والزراعية إلى ساحة المعتقدات السياسية. بل لقد اعتبر علم الوراثة شيئاً من دين: ففي الوراثة هناك التركيب الوراثي الثابت وهناك المظهر المتغير، النظيران في الأديان للروح الثابتة والجسد المتغير.

وفي يناير ١٩٣٩ انتُخب لايسنكو عضواً بمجلس الأكاديمية. وفي اليوم التالي لانتخابه ظهر مقال في (الزراعة الاشتراكية) يقول: (لا يمكننا نحن العلماء السوفييت أن نتجاهل علم الوراثة الحديث.. وعلى من يقترحون إلغاء علم الوراثة أن يقدموا أولاً البديل عن النظرية الكروموزومية، لا أن يقدموا نظرية تعيدنا سبعين عاماً إلى الوراء). ولقد حمل نفس العدد من المجلة زداً غاضباً من لايسنكو قال فيه: (إن من

يفهم البلشفية كما يجب لا يصح أن يتعاطف مع الميتافيزيقا،
أى المنديلية. نعم، فهذه المنديلية فى حقيقة أمرها ميتافيزيقا صريحة
واضحة).

طلب اثنا عشر من كبار العلماء فى خطاب أرسل إلى الكرملين أن
تجرى مواجهة بين لايسنكو ومعارضيه. ولقد تم النقاش بالفعل فى مؤتمر
ابتدأ يوم ١٧ أكتوبر ١٩٣٩ واستمر أسبوعاً. عُقدت جلسات تحت عنوان
(تحت لواء الماركسية)، لمتخذ الجدل صيغة سياسية صريحة. هوجم
لايسنكو كما لم يهاجم من قبل.. ولكن كانت النتيجة النهائية هى
الشجب الإيديولوجى للوراشة كعلم، وللمتخصصين فى هذا المجال،
وأصبح التنديد بالوراشيين أمراً توجيهاً للحزب!

غير أن المعارضين، وعلى رأسهم فافيلوف، لم يتوقفوا، فأرسلوا فى
صيف ١٩٤٠ مناشدة إلى اللجنة المركزية للحزب تفضح آراء لايسنكو
بخصوص الذرة الهجين. قالت العريضة إن الولايات المتحدة قد
رفعت إنتاج الذرة فى عام ١٩٣٨ وحده بمقدار مائة مليون رطل
باستخدام التهجين بين الخطوط النقية، وأنه كان من الممكن للاقتصاد
السوفييتى الموجه أن يحقق زيادة فى المحصول أكبر، لولا موقف
لايسنكو وخداعه.

اعتقل فافيلوف فى ٦ أغسطس ١٩٤٠ ليتمكث بالسجن حتى مات
فى يناير ١٩٤٣، وقبض على عدد كبير من أعضاء معهده فى ٢٨ يونيو
١٩٤١. وجهت إليهم تهمة زائفة، وحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص.

تضاريل التعضيد للايسنكو

وعد لايسنكو قبل الحرب العالمية الثانية بأن ينتج خلال عامين أو ثلاثة سلالات جديدة مقاومة لبرد الشتاء. فلما فشل اقترح طريقة جديدة لزراعة سلالات سيبيريا المحلية تبذر فيها البذور مباشرة على جذامات قمح الربيع السابق، فذلك يوفر تكاليف الجرارات والوقود والعمل، كما أن جذور الجذامات ستحمى النبتات الجديدة من الصقيع. انتقد علماء سيبيريا هذا الاقتراح، لكنه تمكن من إصدار أمر بتطبيقه، مما تسبب في خسائر هائلة في المحصول لفترة بلغت خمسة عشر عامًا.

وفي فبراير ١٩٤٧ صدر بيان من اللجنة المركزية للحزب يعبر عن عدم الرضا من بعض أفكار لايسنكو: طرق الانتخاب السريع، حظر الذرة الهجين، استبدال القمح الربيعي بالشتوي في سيبيريا، وطالب البيان بتحسين طرق تربية النبات.

ومع ذلك ظل لايسنكو رئيسًا لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، وعضوًا بالمجلس السوفيتي الأعلى. لماذا لم يتخذ قادة السياسة والعلم قرارهم بإنهاء دوره في الزراعة حتى تخرج من القوضى التي صممتها؟ يبدو أن نشاط لايسنكو كان يرضى حاجة النظام، بغض النظر عن أخطائه الشخصية. ثم كان هناك الخوف من التغيير - نزعة المجتمع الشمولي إلى الإبقاء على التوازنات، فالتغيير المفاجيء في قيادة ثبت ضعفها قد يؤدي إلى نتائج وخيمة. ثم، من كان يستطيع أن يتحدى شخصًا أثيرًا لدى ستالين؟

على أن لايسنكو لم يصمت وبدأ يدافع عن نفسه بتحويل المعركة إلى ساحة أخرى، فكتب مقالاً رفض فيه وجود صراع بين الأفراد داخل النوع الواحد، وأقر بوجود الصراع بين الأنواع. لكن نظريته هذه لم تجد أذناً صاغية بين البيولوجيين. أصبح استياء الكرملين والمعارضة العلمية خطراً حقيقياً يهدده.

لكن المناخ السياسي كان يتغير. أدرك ستالين بعد نهاية الحرب الخطر الكامن في مئات الآلاف من الجنود العائدين وقد عرفوا كيف يعيش الناس في الدول الرأسمالية. بدأت آلة الدعاية تؤكد على تخلف الغرب أيديولوجياً وتكنولوجياً، وعلى دهاء الرأسماليين، وعلى طريقة الحياة المنفرة في الغرب. وبدأت المقالات تُنشر تؤكد أن القاطرة والقارب البخاري والطائرة والتليفون كلها في الأصل ابتكارات روسية. ثم بدأت محاكمة مَنْ يُتهم بالتعاطف مع الغرب على أنه خائن وجاسوس. وانتهز لايسنكو وأعوانه الفرصة واتهموا علماء الوراثة بخيانة الوطن، وسادوا بضرورة اقتلاعهم من جذورهم. غير أن الوراثيين حاولوا أن يقنعوا قادة الحزب بأن اللايسنكوية خاطئة جملة وتفصيلاً، وأرسلوا مسودتي كتابين بهما تحليلات مفصلة عن أخطاء لايسنكو وعما تم من تخريب للزراعة بسببها. تداولت أيدي كثيرة هذين الكتابين وأصبح محتواهما أمراً شائعاً للجميع.

تزايد الهجوم على لايسنكو، وضعف موقفه واهتز الكرسي (العلمي) من تحته، ورأى أن الحزب لم يعد مثلما كان قبلاً. هل يفكر في

الاستقالة من منصبه كرئيس للأكاديمية الزراعية؟ لم يسبق أن أقدم شخص في منصب رفيع على الاستقالة. فالحزب هو الذى يُعَيِّنُكَ فى المنصب، وهو الذى يطردك منه أو يرقِّيك. لكن التهور بلغ به حدًا يكفى لكتابة خطاب إلى ستالين فى ١٧ أبريل ١٩٤٨، يطلب عونه. قال إن أعداءه - وهم قلة - قد بدأوا هجومًا مكثفًا عليه. هم لم يقدموا شيئًا على الإطلاق. لكنهم ادعوا أنهم (المعضدون لبيتشورين، وقالوا إننا من يشوه تعاليمه، ونحن من يطورها). وعليه (فمن الصعب على أن أستمع فى عملى كرئيس للأكاديمية). ثم أردف أن الحُكْم على أى عمل لاهد أن يكون عن مدى تعزيره للزراعة الاشتراكية. رسم الرجل لنفسه فى الخطاب صورة حقل مسكين تتربص به ذئاب شرسة، ووعد إذا مُنح الفرصة فسيصنع الأعاجيب (لخدمة العلم السوفييتى.. وزراعتنا الجماعية والحكومية).

قمح متفرع السنابل

قيل إنها امرأة اسمها مُسَلِّمة ببجيفا، وهى عاملة بكونخوز فى أواسط آسيا، قد حصلت عام ١٩٣٨ على محصول هائل بزراعتها قمحًا له سنابل متفرعة، يعطى بضعة أضعاف محصول السلالات العادية. لكن الموضوع نسى حتى نهاية الحرب العالمية. وفى عام ١٩٤٦ استدعى ستالين لايسنكو وطلب منه تطوير سلالة من القمح متفرع السنابل تُنشر فى كل أنحاء الوطن وبأقصى سرعة، ثم سلعه صندوقًا به ٢١٠ جرامات من حبوب هذا القمح. أكد لايسنكو (لقائد كل الشعوب وكل الأمم) أنه سينجز المهمة.

لا شك أن لايسنكو كان يعرف الحقيقة تمامًا: فالحبوب التي تأتي من سنابل متفرعة لا تنمو إلى نباتات ذات سنابل متفرعة. لكن القائد قد أمر، فكيف له أن يرفض؟ عندما أخذ من ستالين صندوق الحبوب كان يعرف أنه مقدم على خداع (القائد). لكنه قال إنه يتوقع أن يصل محصول المهكتار إلى عشرة أطنان. وعلى ربيع ١٩٤٨ كانت الجرائد تعلن عن النتائج المذهلة للقمح الجديد، ومضى أعوان لايسنكو (يحولون) القمح الربيعي متفرع السنابل إلى قمح شتوي. وصلت هذه النجاحات إلى ستالين، فابتهج حتى ثوب!

وفي مايو ١٩٤٨ دعا ستالين بعض القادة إلى مكتبه. أخذ يذرع الحجرة ذهبًا وإيابًا ينفث دخان غليونه ويقول: (كيف يجرؤ أحد على إهانة لايسنكو؟ من يتجرأ ليرفع يده ويحط من قدر الرفيق لايسنكو؟ من جرؤ على أن يفتري على الرجل؟).

وخرج لايسنكو من المأزق الذي وضعه الوريثون فيه دون ما خدش. ثم قابل ستالين في يوليو ووعدته بأن تطهيق مبادئ ميتشورين سيتمكنه من أن يرفع المحصول القومي خمسة أضعاف أو عشرة باستخدام القمح ذي السنابل المتفرعة - القمح الذي وجه ستالين نفسه نظره إليه، والذي قد أصبح بالفعل سلالة. ثم إنه في حجل استسمحه أن يطلق هلى السلالة اسم (ستالينسكايا). ووافق الرفيق ستالين. وهُزم الوريثون.

هزموا هزيمة مروعة. فقد أرسل مؤتمر الأكاديمية الذي عقد في أغسطس خطابًا إلى ستالين يقول: (إن علمنا يدين لك أيها العزيز. بكل

منجزاته .. وكل ما أحرزته من تقدم .. ونعدك يا قائدنا العزيز بأن نصلح سريعاً ما ارتكبنا من أخطاء .. وننقضى على الإيديولوجيا البورجوازية).
ثم إذا بجامعة من الفيزيائيين والفلاسفة ينادون بضرورة القيام على الفور بفضح التشويهات البورجوازية لنظرية النسبية لآينشتين.

المشروع العملاق لستالين

فى ٢٠ أكتوبر ١٩٤٨ أعلنت كل الصحف السوفييتية عن (أكبر مشروع فى التاريخ، مشروع لم يسبق له أبداً مثيل)، فلقد قررت اللجنة المركزية للحزب، ومجلس الوزراء، ووافق ستالين على مشروع لزراعة الغابات للسيطرة على تآكل التربة، ولإدخال دورة زراعية فى أراضي الرعى، وإقامة الأحواض والمستودعات المائية لضمان محاصيل وفيرة فى مناطق وغابات الاستبس. فعلى مساحة تزيد على ١٢٠ مليون هكتار - أى ما يعادل كل مساحة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيا وهولندا مجتمعة - سيُزرع حزام من الغابات يصد الرياح الحارة الجافة، ويغير المناخ، وبه (ستختفى العواصف السوداء، سيتنهي الجفاف، سيصبح المناخ أكثر اعتدالاً، ستجدو حياة ساكنى الاستبس أكثر راحة وأجمل وأمتع وأثري، ستحصد الكولخوزات والسوفخوزات محاصيل أكثر وأكثر من الحبوب والخضراوات والفواكه، وسترعى قطعان هائلة من الماشية والأغنام) - هذا ما سيصنعه (مشروع ستالين لتحويل الطبيعة)، سيضمن الغذاء لشعوب الاتحاد السوفييتى لقرون تلى.

وجاءت الفرصة تسعى إلى لايسنكو، ليطبّق (اكتشافه) بأن التطور يمضى دون منافسة بين الأفراد داخل النوع، الاكتشاف الذى يؤكد على تجارب (العون المتبادل) بين نباتات النوع الواحد فى الزراعة الكثيفة. كان يرى أن الطرق التقليدية فى زراعة الغابات - والتي تُزرع فيها الأشجار متباعدة حتى لا تؤثر الواحدة منها فى نمو الأخرى - هى طرق خاطئة. كان يعتقد أن الشجيرات تساعد بعضها بعضًا، وأن الأضعف منها يموت ليفسح المجال للأشجار الأكثر نجاحًا. وانطلاقًا من نظريته هذه عن (التضحية بالنفس) أصر على أن يُزرع حزام الغابات فى صورة مجاميع شجرية: ست أو سبع شجيرات بلوط تُزرع فى كل واحدة من خمس حفر متقاربة تشكل مجموعة.

كانت هذه الفكرة قد انتقدت نقدًا عنيفًا عندما عرضها لايسنكو فى نوفمبر ١٩٤٧ وفبراير ١٩٤٨. لكن ستالين أصدر مرسومًا بأن تتم كل زراعات الغابات فى مشروعه العملاق بالطريقة التى اقترحها لايسنكو. لم يقدم (العالم) أية بيانات علمية تثبت أن النباتات تستطيع أن تقوم بنشاط (اجتماعى) هادف، وتضحى بنفسها من أجل بقاء نوعها وازدهاره، فتختار مستقلةً أيها يموت وأيها يستمر فى النمو على أكتاف من ضحى ومات من (الرفاق). نقل لايسنكو إلى البيولوجيا أفكار الصراع السياسى لتصبح الجوهر فى زراعة الغابات الجديدة.

وفى ربيع ١٩٤٩ زرعت مساحة ٣٥٠ ألف هكتار بجوز البلوط، واتضح فى خريف نفس العام أن لم يكن ثمة (عون متبادل) بين

البادات. كانت النتائج كارثة. نجح نصف ما زرع في بعض المناطق، وحمسه في مناطق، وعشره في أخرى، وماتت كل البذور في ٣٪ من المساحة. وتكرر نفس الشيء في زراعة المواسم التالية. وعلى عام ١٩٥٦ لم يكن باقياً من النباتات في صورة أشجار حية سوى ٤,٨٪ مما زرع.

لم يتغير المناخ، لم تُوقَف الرياح الجافة، لم يتمكن الأطفال السوفييت من أن يأكلوا من الفاكهة ما يشاءون!

وعندما مات ستالين توقفت الجراند تماماً عن الحديث عن المشروع، وقدرت الخسائر بنحو ألف مليون روبل، وهذا تقدير بالتأكيد متواضع!

كيف ينجب طائر الوفاوق عصفوراً

في اجتماع للأكاديمية عقد في أغسطس ١٩٤٨ أعلن لايسنكو أنه قد وجد طريقاً، يختلف عما قال به داروين، يتحول به النوع إلى نوع آخر. تقول نظرية داروين إن مثل هذا التحول يحدث تدريجياً، لكن (نظرية) لايسنكو تقول الآن (إن تحول النوع إلى نوع جديد يحدث في قفزة واحدة، دون أية مراحل وسيطة). فلقد استطاع الرجل (بتدريب) القمح الصلب (وله ٢٨ كروموزوماً) - بعد زراعته في الخريف عامين أو ثلاثة أو أربعة - أن يحوله إلى قمح الخبز (وله ٤٢ كروموزوماً) دون أن يمر في أية صور وسيطة. ثم إنه قدّم للمؤتمر عينات نباتية مجففة تؤكد أيضاً تمكنه من تحويل الجويدار إلى قمح. لم يقدم أية بيانات علمية تعضد نظريته، لكنه حاول أن يعطيها أساساً فلسفياً. ثم بدأ يروج لنظريته في

محاضرات عامة كثيرة، إدعى فى إحداها أنه من الممكن أن يتحول طائر الوقواق إلى عصفور هازج، فالوقواق الكسول ينقل بيضه إلى عش العصفور ليفقس هناك وتخرج صغار يغذيها العصفور بغذائه، فتتحول تبعاً (لقانون حياة الأنواع البيولوجية) إلى عصافير: من الممكن إذاً أن يتحول القمح إلى جويدار، والجويدار إلى شوفان، والشوفان إلى شوفان برى، بل ولقد ادعى واحد من أتباعه بأنه قد تمكن من أن ينتج شجرة بندق من شجرة زان أبيض. (إن نظرية الديالكتيك.. قد منحت البيولوجيين السوفييت فرصة أن يكشفوا كيف تتحول أنواع النبات إلى أنواع أخرى). لم تعد لنظرية داروين بُعداً لايسنكو إلا قيمتها التاريخية!

مات ستالين .. يحيى خروشوف

وفى ١٥ مارس ١٩٥٣ مات ستالين، ثم تولى خروشوف منصب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب. كانت العلوم الزراعية قد وصلت إلى أدنى مستوى، وبدأت حملات علمية مكثفة تحاول أن توقف هذا المد المُسبب من التهريج باسم العلم، وتفضح ما صدر ويصدر عن مدرسة لايسنكو، كما بدأت المعارضة السياسية. فى اجتماع اللجنة المركزية الذى عقد فى فبراير - مارس ١٩٥٤ جرت لأول مرة مناقشة مفتوحة عن نقص الحبوب وانخفاض المحصول وتدهور التربة وتدنى الإنتاج الحيوانى. وفى الاجتماع التالى فى يناير - فبراير ١٩٥٥ اتهم خروشوف قيادة العلوم الزراعية بوقوفها فى

وجه استخدام الذرة الهجين، واتخذ قرار بالتحول إليها. لم تكن هناك بالدولة سلالات للتهجين، ولم يكن ثمة وراثي واحد لتطويرها فتقرر استيراد كميات ضخمة من البذور من الولايات المتحدة، دُفع ثمنها ذهباً. وبدأ النقد يوجه إلى لايسنكو في الكتلة الاشتراكية خارج الاتحاد السوفييتي. فُضحت نتائجه الزائفة، واحتكاره للعلم، وقمعه معارضيه واضطهادهم بخدع سياسية ماهرة فجأة. وكتبت المجلة النظرية للجنة المركزية للحزب عام ١٩٥٤ (عن الصراخ ضد النظام الاستبدادي الذي ترسخ في بعض المعاهد العلمية من قبل علماء يحاولون احتكار العلم)، وذكرت لايسنكو بالاسم.

وفي عام ١٩٥٥ حلت الذكرى الثوية لميلاد ميثشورين، وقررت الحكومة الاحتفال بها. أقيم الاحتفال في مسرح البولشوي يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٥٥، وظهر لايسنكو بجوار هولجانين رئيس الحكومة، ومالينكوف وشيبيلوف - وتغيب خروشوف لوجنوده خارج موسكو.

ونجاة، وفي أبريل ١٩٥٦ أعلنت الجرائد أن لايسنكو قد أعفى من منصبه كرئيس لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية، بناء على طلبه. اعتقد الكثيرون أن هذه نهاية لايسنكو، أن الحظر سيُرفع عن البحوث الوراثية، أن تدريس البيولوجيا سيتلين. غير أن الوقت لم يكن قد حان بعد.

لكنه عاد ثانية

كان يوم أول مايو ١٩٥٦ هو أتمس أيام لايسنكو. فلأول مرة لم تصله دعوة لحضور الاحتفال التقليدي بمعهد العمال فى مسرح البولشوى، بل لقد قُطع خط التليفون المباشر الذى يربطه بالكرملين، فلم يستطع أن يقدم تهانئه لقيادة الحزب.

قيل إن خروشوف قد أعفى لايسنكو من منصبه لأنه يكرهه. لكنه قام بزيارة لمزرعة لايسنكو، (وأذهله ما رآه). فطلب منه أن يزرع هكتاراً قفحاً قرب بيته الريفى، كما طلب من (صانع معجزات) ثان (هو تسيقتين) أن يزرع هو الآخر هكتاراً. نجح لايسنكو فى الاختبار. وقال خروشوف فى ٣١ مارس ١٩٥٧: (هناك من العلماء من لا يزال يعارض لايسنكو.. لكننى إذا سئلت عن أى العلماء أختار، لما ترددت فى اختيار لايسنكو. أنا أعلم أنه لن يخذلنا، ولا أعتقد أن هناك من العلماء من يفهم التربة مثل الرفيق لايسنكو).

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٨ منح لايسنكو وسام لينين لسابع مرة (لخدماته الجليلة للزراعة ومساعداته العملية فى رفع الإنتاج). ثم أخذ خروشوف نفسه يدافع عن الميثشورينىة ويقلل من شأن معارضيها. ثم بدأ يصطحب معه لايسنكو فى جولاته. (ليس من نباتات تُقْتَلُ من جذورها مثل الجشائش.. لكن ليس من نباتات مثلها تعود فتنبت).

السقوط الأخير

فضح خروشوف جوقة ستالين، وفتح أبواب الجدل حولها، والحق أن خروشوف نفسه قد نادى باقتلاعهم من جذورهم. وكان لايسنكو واحداً من الجوقة، ومع انفتاح باب النقد وُضع لايسنكو تحت المطرقة. ثم تزايدت الأصوات التي تدين لايسنكو، هذا (الستالين الصغين)، فأضطر خروشوف إلى إعفائه من منصبه كرئيس للأكاديمية.

وفى نهاية عام ١٩٦٢ ووجه لايسنكو بهجوم عاصف من البيولوجيين ومن ممثلى العلوم السياسية. وفى محاولته حماية نفسه جمع فى ديسمبر مؤتمراً عُرض فيه أكثر من سبعين تقريراً عن (طرق) توجيه علم الوراثة، وكان التأكيد على تحويل السلالات الريعية إلى محاصيل شتوية بيدُر بذورها فى الخريف لمدة سنتين أو ثلاث. قال لايسنكو، ونشرت البرافدا قوله: (والآن من يشك فى إمكانية تشكيل وتخليق نباتات تتحمل الشتاء من نباتات لا تتحملة باستخدام الظروف البيئية؟). لكن تاريخ لايسنكو من الفشل كان قد أصبح أمراً ذاتاً بين أهل الفكر. كرهوا ما عرفوه عن الرجل، وبدت لهم فجاجة أفكار مزعجة.

ثم مضى خروشوف فى إجازة إلى الجنوب فى ٣٠ سبتمبر ١٩٦٤. وفى ١٤ أكتوبر اجتمع قادة الحزب وعزلوا خروشوف، فيما سُمى (ثورة أكتوبر الصغيرة). وانتشرت أنباء تقول إن تعضيد خروشوف للايسنكو كان واحداً من أهم أسباب عزله.

وانتهت أسطورة لايسنكو !